الفصل الحادي والثلاثون

غليوم الثانى وبسمرك

دهاء غليوم — اكراهه بسمرك ان يستقيل

البرنس بسمرك مستشار الامبراطورية الالمانية حتى سنة ١٨٩٠

قضى الامبراطور غليوم الاول نحبه في شهر مارس سنة ١٨٨٨ فخلفه ولده فريدريك الثالث وكان مريضاً ثم استأثرت به رحمة الله بعد ثلاثة أشهر فخلفه ولده غليوم الثانى . فكأن هذا خلف جده مباشرة لان مدة حكم ابيه كانت كلها على سرير المرض

على ان غليوم الاول نفسه كان قد ادركه الكبر و بلغ سن العجز (٩١) فألقى اعباء الحكم كلها على نائبه ومستشاره بسمرك من قبل خمس سنوات او ست واستراح . بيد ان الامير غليوم — وهو الذي اصبح بعد ذلك غليوم الثاني — لم ينظر بعين الرضى الى استنابة رجل كان يراه أدنى رتبة ممن اوتوا الملك بالحق الالهي . . . وان يكن ذلك الرجل كونتاً و برنساً . وان يكن بسمرك داهية المانيا ورجلها الحديدي . ولكن ماذا يجدي التظلم ، وجده وابوه لا يزالان حيين يرزقان ؟ فهو لم يكن ليحسب ان الحوادث ستتوالى بمثل تلك السرعة و يفضي الامر اليه ما بين عشية وضحاها

اما بسمرك فكان ينظر بعين الاطمئنان الى هذا « الفتى » — كما كان يسميه — الكثير الحركة القليل الاختبار . حاسباً ان المستشارية ستظل لاصقة به ما دامت فيه بقية رمق . بيد أنه مع شدة دهائه ابتلي بمن هو أشد منه دهاء ، فان غليوم الثاني كان قد صرح لبعض أخصائه قائلاً كما قال لويس الرابع عشر : « أريد أن أكون أنا وزيري الاول »

ثم بدأ غليوم الثاني رحلاته بعد جلوسه على العرش فزار أولاً ملوك وامراء الاتحاد الالماني ثم شرع في زيارة العواصم الاوربية ، ضارباً عرض الحائط بنصيحة بسمرك الذي كان يشير عليه بالتأني قائلاً : « لا تحاول يا صاحب الجلالة ارضاء كل الناس في وقت معاً . وان التوفيق بين الماء والنار لأهون من التوفيق بين انكلترا وروسيا فان كل كلمة تقولها في احدى عاصمتيهما تردد في الاخرى وتأوّل تأويل شتى . ولا تنال من وراء ذلك الا سمعة ملك ينطق لسانه بضد ما في ضميره » نصيحة حكيم ولكنها ذهبت في الهواء

ثم رأى غليوم ان وزراء بلاطه والساسة يرتعدون فرقاً من بسمرك فشرع يغير ويبدل فيهم من غير استشارة مستشاره . وخصوصاً في وزارة الخارجية .

قال بسمرك : « فساورني القلق لرؤيتي الرجال الاكفاء ذوي الخبرة يتخلون عن مناصبهم لآخرين لا كفاءة عندهم ولا اختبار . لاسيما اني كنت ادرى من كل انسان بما تقتضيه الشؤون الخارجية بنوع خاص من الحنكة واصالة الرأي . فكان لا يألف جفني الكرى »

وكان بسمرك في اواخر ايامه هدفاً لنوبات عصبية فأشار عليه الوزراء و بعض رجال البلاط بمراعاة صحته والذهاب الى احدى المدن الصحية انتجاعاً للعافية فأجابهم لمن للدسيسة . ولكنه لم يكد يغادر برلين حتى بدأت الدسائس وكانت ترمي الى تدبير خلاف بين الامبراطور ومستشاره يكون الخطأ فيه على ثانيهما ولم يكن ذلك بالامر الهين . لان الوزير الروّاغ كان قد فطن لاكثر من حيلة

وانتهز غليوم الثاني فرصة غيابه فنشر في الجريدة الرسمية رسالة كان قد وضعها لحل «مسألة العمال» فدهش الناس لرؤية نشرة غير مذيلة بتوقيع مستشار الامبراطورية وأراد بسمرك أن يحتج فلم ينصره وزراؤه . فهم قد رأوا انفسهم بين نارين فظلوا على الحياد . فوجه انظاره الى مجلس الراشستاغ فكان اعضاؤه اكثر خنوعاً من الوزراء فتميز بسمرك غيظاً واندفع في الفخ المنصوب له فألقى خطبة بالغة الغاية من العنف يوم ١٣ مارس سنة ١٨٩٠ خاطب بها الامبراطور ووزراءه فأذكرهم بمنطوق قرار الوزارة البروسية سنة ١٨٥٢ ومنطوق دستور سنة ١٨٧١ وهو بموجب تلك النصوص « المسؤول الوحيد » ازاء الامبراطور عن المسائل الداخلية والخارجيـة . ثم صاح قائلاً : « بصفتي مستشار الامبراطورية ورئيس مجلس وزراء بروسيا لي وحدي الحق بمحادثة الامبراطور في الشؤون الادارية الاساسية . وعلى كل وزير ان يخابرني شفوياً أو كتابة في أي مشروع قانوني يريد أن يعرضه على جلالته بل ان كل رئيس مصلحة يريد ان يقدم للامبراطور تقريراً مباشرة عن شؤون مصلحته يجب عليه أن يطلعني عليه مقدماً ليتسنى لي أن أشهد المذاكرة اذا رأيت ضرورة ذلك »

وظن بسمرك ان خطابه هذا سيثير حنق الامبراطور فلم يكن شيء من ذلك لان غليوم لم يزد على أن قال له : هذه مسألة تقتضي البحث . فارفع اليّ تقريراً بها فأرى ... وفي اليوم التالي نشرت الصحف المعادية لبسمرك تطلباته وتوسعت فيها وانتقدتها بألسنة حداد

واتفق في اليوم التالي ان احد النواب في مجلس الراشستاغ وافى بسمرك في منزله وحادثه في بعض الشؤون . فلم يكد يخرج من عنـده حتى أوفد الامبراطور

الى المستشار رئيس ديوانه الخصوصي – لوقانوس – ينذره بأن كل محادثة سياسية مع النواب يجب أن يخاطب الامبراطور بخصوصها مقدماً ، فأجاب بسمرك : قل لجلالته اني لا أعرف لاحد حقاً في ان يتحكم بي في اختيار زوار بيتي ...

الامبراطور غليوم الاول مؤسس الوحدة الالمانية

قال بسمرك : « فبينا انا في منزلي في اليوم التالى (١٥ مارس) وافاني غليوم مبكراً ، فقمت من سريري وارتديت ثيابي على عجل وذهبت اليه فقال لي بصوت مضطرب : ما معنى هذه المفاوضات مع ويندهورست . قلت ليس ثمت مفاوضات بل محادثة خصوصية فألح الامبراطور في تأييد حقه في الاطلاع مقدماً على كل مفاوضة تجري بين المستشار وزعماء الاحزاب في المجلس النيابي فأنكرت عليه دعواه وقلت انا لا أقبل أية مراقبة في ما يتعلق بعلاقاتي مع النواب . ولا اسمح لأي كان بأن يتكلم بلهجة الآمر في منزلى . فقال محتداً حتى ولو امرتك كملك ؟ فقلت حتى

في مثل هذه الحالة يا صاحب الجلالة . فان أوامر امبراطوري تقف عند باب ردهة امرأتي ... ثم قلت : ولولا عهد سبق مني للامبراطور غليوم الاول لما كنت باقيًا الى الآن في خدمة حفيده . فاذا كنت مزعجًا لجلالتكم فانا مستعد ان أنسحب ... »

فاستمهله غليوم يومًا ليرى رأيه وانصرف . اما بسمرك فانخدع بهذا الصمت وظن الامر قد انقضى أو كاد واذا بالجنرال هانكي يوافيه في ١٧ منه ويقول له : ان جلالة الامبراطور ينتظر ورود كتاب الاستقالة من سموكم ... فقال بسمرك وقد أخذ منهُ التأثر كل مأخذ : « قل لجلالته ان حالتي الصحية وخطورة استقالة مفاجئة في الاحوال الحاضرة تحولان دون تلبيتي الطلب حالاً . واني لأعتبر نفسي عابثًا بواجب الذمة ازاء الامبراطور والامة اذا غادرت منصبي في الظروف الحالية . لاني اذا فعلت اكون كاني البست الحقيقة حلة كاذبة من الوجهة التاريخية . وان للامبراطور حقًا في أن يصرفني في أية ساعة شاء ، أما أنا فتربأ بي نفسي عن أن أجعل حداً لمهمتي السياسية بعمل وخيم العاقبة في نظري على الشعب الالماني وعلى الامبراطورية ...

فانصرف رسول غليوم من غير ان يفوه بكلمة .

وخشي الوزراء سوء العاقبة على انفسهم لان بسمرك كان آخر عقبة في وجه الاستبداد الامبراطوري فاذا سحق سحقوا كلهم معه فالتفوا حول المستشار بعد مناوأتهم له . وعقدوا العزم على السعي لدى الامبراطور والمستشار في تسوية الخلاف بالتي هي احسن ، واذا بوزير الداخلية دخل عليهم على حين غرة وقال لهم ان يكفوا انفسهم كل عناء فان الامبراطور لاحاجة له في نصائحهم ، وان نياته في ما يتعلق بالبرنس بسمرك لا تتحول ....

ولم يكن الامبراطور يتوقع هذه المقاومة من بسمرك فعيل صبره . فلما كان بعد ظهر ١٧ مارس اوفد اليه رئيس ديوانه الخصوصي لوقانوس فأعرب للمستشار عن دهشة الامبراطور من ابطائه في تقديم استقالته فأجابه : « اني مستعد لتلبية رغبة جلالته ، ولكن توقيع طلب احالة على المعاش هو آخر مستند رسمي يصدر من وزير له بعض الشان في تاريخ المانيا وبروسيا يقتضي مهلة . وان هذا بعض ما يجب عليّ

لنفسي وللتاريخ الذي سيروي ذات يوم من غير شك السبب الذي صرفت من اجله »

وكان بسمرك يود المطاولة لعل الامبراطور يرجع عن عزمه ولكن لوقانوس قضى على ما كان باقيًا في صدره من الامل بقوله : « ان جلالته مع شكره لك ما اتيت من الخدم في سبيل التاج والوطن يمنحك لقب « دوق دي لوانبورغ » فقاطعه بسمرك وعلى شفتيه ابتسامة – واية ابتسامة – وقال لو أردت لكنت دوقًا من زمن بعيد . فقال رسول الامبراطور : وأظن ان في امكاني أن اضمن لك ان جلالته يصحب هذا اللقب بهبة مرضية .

فقطع بسمرك الحديث بقوله : لا شك عندي في مكارم جلالته ، ولكني أرجو من فضلك أن تقول للامبراطور ان ورائي ماضيًا جليلاً حافلاً بالمآثر وهو يرأبي عن أن اختتمه بالسعي في نيل مكافأة كاني ساعي بريد

فانصرف لوقانوس على أثر هذا الجواب الجافي وهو لم يظفر بطائل

ثم مرت ثلاثة أيام على هذا الحديث صرفها بسمرك في بسط الاسباب الملجئة له الى الاستقالة . هذه الاسباب كان جعلها بسمرك جزءاً ثالثًا لكتاب مذكراته ، وقد أوصى أن لا يطبع الا بعد وفاة غليوم الثاني . وقد كان أشيع ان مالكه مثله للطبع بعد تنازل غليوم ولكننا لم تصل الى يدنا نسخة منه بعد . ومهما يكن فان هذه المذكرة قدمت الى الامبراطور في ٢٠ مارس . قال بسمرك : وهي ضافية لم يكن اتسع الوقت للامبراطور لقراءتها حين اوفد اليَّ كلاًّ من لوقانوس وهانكي يحملان اليّ كتاب استقالتي لتوقيعه . وأغرب من ذلك اني كنت قد ذكرت في بياني ان استقالتي لم تكن لاسباب صحية ، ومع هذا اكرهت على توقيع صك استقالة معللة بضعف قواي »

وظل بسمرك حاقدًا على غليوم الثاني الى آخر عمره ، ولما احسّ بدنو اجله اوصى ان يكتب على قبره : « هنا ثوى البرنس بسمرك الخادم الوفي للامبراطور غليوم الاول »

اما غليوم الثاني فتناساه

الفصل الثاني والثلاثون

الازمة المراكشية — فضائح اولانبرغ

ان الحرب الاوربية الكبرى التي فوجىء العالم بها في سنة ١٩١٤ على حين غرة كانت لها اسباب ومقدمات ترجع الى ما قبل الحروب البلقانية وما ترتب عليها من احتكاك المصالح الروسية والنمسوية . على ان من تلك الاسباب البعيدة المسألة المراكشية التي اوغرت صدور الالمانيين فهاجت الخواطر من جراء الفشل السياسي وكان ذلك مدعاة الى تولد حركة فكرية عدوانية تذرع بها حزب الجامعة الجرمانية للدعوة الى أخذ الاهبة فكانت الحرب من جراء ذلك

كانت الدول الاوربية ذات المصالح في مراكش في القرن التاسع عشر ثلاثاً اسبانيا وفرنسا وانكلترا . اما المانيا فلم تكن لها مصلحة ما ولكنها منذ نزعت الى السياسة الاستعمارية انصرفت الى دس الدسائس . بل ان الانكليز والالمان كانوا قبل سنة السبعين يتعاونون على مناهضة النفوذ الفرنسوي في مراكش . فلما كانت سنة ١٨٩٦ استدعت الحكومة الالمانية معتمدها الكونت تاتنباخ وانقضى الامر . ثم حذت انكلترا حذوها بعد خمس سنين وتركت فرنسا مطلقة اليد في ذلك الصقع فكان عملها هذا مقدمة للاتفاق الولائي الذي عقدتاه بعد ثلاث سنوات (٨ ابريل ١٩٠٤)

وكان في سنة ١٨٩٠ ان الحكومة الانكليزية تنازلت لالمانيا عن جزيرة هلي غولند المجاورة لها في مقابل تنازل هذه لانكلترا عن بعض اراضيها في افريقيا والتخلي عن كل مطمع في مراكش . ثم اتفق في السنة التالية حصول ازمة صناعية كبرى في المانيا واشتدت الحاجة الى المواد الاولية فقام حزب الجامعة الجرمانية يتطلب حلاً لهذه المعضلة العويصة ثم عقد في شهر مارس سنة ١٩٠٤ مؤتمراً تقرر فيه دعوة الحكومة الالمانية الى احتلال الاقاليم الغربية في مراكش

وبينما الالمانيون لما بهم فوجؤوا بتوقيع الاتفاق الولائي الذي تخلت بموجبه فرنسا لانكلترا عن مصر.... وتخلت انكلترا لفرنسا عن مراكش . وهكذا استوثق الصلح بين هاتين الدولتين الخصيمتين على حساب السوى ...

الجنرال مولتكي محرز النصر في الحرب السبعينية

قام انصار الجامعة الجرمانية وقعدوا على اثر توقيع هذا الاتفاق ثم طالب زعيمهم الكونت رفنتلو مستشار الامبراطورية البرنس دي بيلوف بالمجاهرة بخطته السياسية فصرح هذا على رؤوس الاشهاد « بانه مصمم على ان لا يجازف بالبلاد من أجل مراكش » . ولكن لم يكد يمر على هذا التصريح الصريح حين من الزمن حتى تناقلت أسلاك البرق خبر نزول غليوم الثاني على حين غرة في ميناء طنجه في الحادي والثلاثين من شهر مارس سنة ١٩٠٥

في هذه الزيارة كان غليوم الثاني مرتديًا بزة فلد مرشال انكليزي الزرقاء

والحمراء ... وممتطياً جواداً مطهماً ناصع البياض — وقد حيتـه وهو يتطي جواده ، ولكن تحية عداء ، فتاة الزاسية ، بطاقة من الزهر مثلثة الالوان تربطها عقدة سوداء حدادية ... رمت بها رأس الجواد

ولم تزد هذه الزيارة على طواف سريع في شوارع طنجه ، وتبادل بعض الخطب . ثم عاد الامبراطور من حيث أتى والغيت الحفلات التي كان في النية اقامتها

ويعزى الى البرنس بيلوف انه قال «انه هو الذي بعث بالامبراطور الى طنجه» كما يعزى الى غليوم انه صرح بأنه اكره على ما فعل بتأثير دي هولستين اعدى اعداء فرنسا في الوزارة الخارجية الالمانية . وهو الذي كان يدعو الى مفاجأة فرنسا بالحرب ولكن هذه الحرب لم يكن غليوم الثاني يريدها . ولكن اصح من هذا وذاك أن يقال ان هذه الحركة الامبراطورية انما كانت باغراء وتحريض انصار الجامعة الجرمانية

على ان غليوم الثاني حاول في اثناء اجتماعه بقيصر روسيا في بيوركه ان يستميل بروسيا الى صوبه فلم يفلح . وانتهى الخلاف على هذه المعضـلة باستقالة المسيو دلكاسه وزير خارجية فرنسا وعدو المانيا

وعقد مؤتمر الجزيرة الخضراء (يناير — مارس ١٩٠٦) فكان الفشل فيه نصيب المانيا مرة أخرى

وبينما كان رجال السياسـة منصرفين الى حل المشكلة المراكشية نشأت في المانيا فضائح داخلية كان لها مثل وقع الصاعقة او اشد ونعني قضية هولدن واولانبرغ

اما البرنس فليب اولانبرغ فكان ذا منصب سـام في البلاط ، وكان له نفوذ شخصي على الامبراطور لاحد له ، وكان في السياسة ذا حنكة ودهاء ، وتوقد ذكاء حتى قالوا ان معظم الفضل في اكثر الاعمال السياسية التي امتـاز بها عهد غليوم الثاني منذ سقوط بسمرك الى تعيين البرنس دي بيلوف يرجع الى البرنس اولانبرغ. بيد انه كانت له نقائص معيبة ، وكان يشاركه فيها على ما يظهر غير واحد من الحاشية الامبراطورية ، وكان مشهوراً امرها بين الخاصة والعامة لايجهلها احد غير الامبراطور وهذا ما جعل موقفه في هذه القضية مثاراً للشبهات

هذه الفضائح كشف النقاب عنها الكاتب الجريء مكسيمليان هردن في

جريدته زونكوفت . على انه لم يكن مدفوعاً بعامل أدبي وانما كان يرمي الى غرض سياسي مزدوج . فهو من جهة اولى اراد ان يؤدي بعمله هذا خدمة للبرنس دي بيلوف وهو من خصوم اولانبرغ ، ومن جهـة أخرى كان لا يغتفر ، وهو احد انصار الجامعة الجرمانية المتطرفين ، لرجال الحاشية الامبراطورية تأثيرهم على غليوم الثاني في اثناء الازمة المراكشية سلمياً ، وعضده في حملته هذه ولي العهد — وقد قلنا انه كان حربياً متطرفاً — فحمل بنفسه اعداد جريدة زونكوفت الى ابيـه وقال له : « انظر يا أبتي اخلاق ذوي شوراك . أفلا تضرب بيد من حديد ؟ »

وخدعت الظواهر الصحافة الاجنبيـة فأثنت ثناء جميلاً على « فضائل » ولي العهـد . بينا هو لم يكن يرمي الا الى الغرض السياسي ألا وهو نشر الدعوة السياسية العدوانية الممهدة للحرب

وكان لهذه الفضائح شأن خطير يومئذ لاسيما بعد تدخل ولي العهد في الامر بشكل فاضح ، فلم يسع غليوم الثاني الا ان يتخلى عن اصدقائه وندمانه ولكن على كره . وجرت محاكمة صورية ثم احتج بوعكة خفيفة طرأت على المتهم الاول فاعتبر مريضاً واوقف التحقيق

وكان مكسيمليان هاردن قد ألقم في غضون ذلك مبلغاً طائلاً فعدل عن تجديد تصريحاته الاولى وحكم عليه حكماً صورياً وانتهت القضيـة بعد ان وصمت الذين كان لهم شأن فيها وصمة عار لا يمحى

الفصل الثالث والثلاثون

الجامعة الجرمانية والسياسة الكونية

قال الوزير الفرنسوي هانوتو في تاريخه « تاريخ الحرب الكبرى » : « وضع البرنس دي بيلوف مستشار الامبراطورية الالمانية السابق كتاباً عنوانه « السياسة الالمانيـة » (طبع في اوائل سنة ١٩١٤) زعم فيه ان الحكومة الامبراطورية أوتيت مهارة خارقة في ترويج سياستها الكونية من غير ان تعبث بالسلم العام » ثم لم يكن غير بضعة اسابيع حتى كانت سياسة غليوم الثـاني مدعاة لنشوب الحرب الكبرى. فكان كأنه وضع كتابه لتفنيـد عمله السياسي كله والتعريض بالسياسة الامبراطورية في وقت معاً . . .

على انه لا مندوحة لنا عن اثبات لمحة عن تطورات هذه السياسة الكونية

في ٢٨ مارس ١٨٩٧ انقض مجلس الراشستاغ كثيراً من مطالب الحـكومة لامبراطورية في ما يتعلق بالانشاءات البحرية . فقلد غليوم الثـاني البرنس دي بيلوف وزارة الخارجية والاميرال دي تيربتز وزارة البحرية فلم يلبث هذا ان وضع مشروعه البحري الكبير . ثم في العام التالي جاب غليوم الثـاني انحاء سورية وصرح على قبر صلاح الدين « ان امبراطور الالمان صديق حميم للسلطان الذي يعتبره ثلاث مئة مليون مسلم خليقتهم » فكأنه اراد ان يصيد الثلاث مئـة مليون مسلم في شبكة واحدة . . .

وفي سنة ١٨٩٩ نال من تركيا امتيـاز خط بغداد الحديدي . وقال في حفلة افتتاح ميناء ستيتن كلمته المشهورة « مستقبلنا على الماء »

ونال من الصين اقليم كياوتشاو . ثم تحدى فرنسا في ما يتعلق بحماية المسيحيين في الشرق وكان قد اعترف لها بها بسمرك نفسه في مؤتمر برلين .

اما تحديه في خطبه من ذكر البارود الجاف والسيف المشحوذ والنصر والظفر وما جرى هذا المجرى فأكثر من ان يحصى

ورأت انكلترا انصراف المانيا الى تعزيز اسطولها بسرعة فائقة فأوجست خيفة من سوء العاقبة فبادرت الى تسوية ما كان قائمًا بينها وبين فرنسا من اسباب الخلاف بالتي هي أحسن ، وذلك بفضل تدخل الملك ادوار السابع ، وكان من جراء ذلك عقد الاتفاق الولائي الذي اقام المانيا واقعدها

وقد قلنا ان المسألة المراكشية سويت في مؤتمر الجزيرة الخضراء على غير ما تتمناه المانيا . حتى ان حليفتيها النمسا وايطاليا كانتا ضدها . فرضيت بهذه النتيجة على كره . وبقيت الصدور موغرة والنار كامنة تحت الرماد ، فلما كانت حادثة فراريي الدار البيضاء (١٩٠٨) خيل الى المانيا انها فرصة سانحة فأرادت انتهازها ولكن فرنسا اوضحت لها بجأش رابط انها سائرة على غير هدى فأذعنت ولجأت الى التحكيم

وفي غضون ذلك نشأت ازمة جديدة من جرّاء ضم النمسا ولايتي البوسنه والهرسك – الذي اتفق وقوعه مع الانقلاب العثماني في وقت معًا – فاستنجدت الصرب بالدولة الروسية فأرادت هذه ان تتوسط ، واذا بالمانيا قد اندفعت الى الميدان للذود عن حليفتها فاضطرت روسيا الى الاذعان لانها كانت لا تريد الحرب التي كانت اقصى آمال الدول الوسطى

ثم سقط البرنس دي بيلوف وخلا المجال لانصار الجامعة الجرمانية فلم يقفوا عند حد ، بل ان دولتي الوسط تقاسمتا الشرق من ادناه الى اقصاه فللنمسا البلقان وللمانيا ما بقي من سلطنة آل عثمان ....

وادركت روسيا الخطر فهرع القيصر نقولا الثاني الى بوتسدام (١٠ نوفمبر سنة ١٩١٠) فضحى ما ضحى في سبيل المطامع الالمانية بتنازله عن انشاء فرع من خط بغداد الحديدي وعقد مع المانيا اتفاقًا حددت فيه مناطق النفوذ الروسية والالمانية في تركيا والعجم

وفي السنة التالية (يوليو ١٩١١) تجددت الازمة المراكشية ثالثة بحادث اغادير . فان المانيا عادت الى المطالبة بقاعدة حربية ومنطقة نفوذ في مراكش . فلم

يسع فرنسا الا أن تجاملها مرة أخرى فتنازلت لها عن قسم من مستعمرتها الافريقية (الكونغو) تفاديًا من الاستهداف لحرب لاتبقي ولا تذر

على ان ضم النمسا ولايتي البوسنة والهرسك هاج اطماع حليفتها ايطاليا فهاجمت طرابلس الغرب واحتلت الجزائر التركية في الارخبيل . ولم يكد يمسح القلم من معاهدة الصلح التي عقدت في لوزان حتى هبت الدول البلقانية الاربع – بلغاريا والصرب واليونان والجبل الاسود – فعقدت تحالفًا رباعيًا وانقضت على تركيا محتذية حذو النمسا وايطاليا . هذه الحرب كانت لها غاية مزدوجة اما الاولى فالخلاص من السيادة التركية واما الثانية فاتقاء شر السيادة الجرمانية التي كانت تهددها

اما المانيا فوقفت ذاهلة امام انكسار تركيا . وكانت قد حسبتها اصبحت لها لقمة سائغة فهبت لصيانة ما تبقى منها . وصدّت بلغاريا عن الاستانة وادرنه فولت وجهها شطر سالونيك واذا بالجيش اليوناني قد احتلها على عجل . ورأت الصرب ان سالونيك والبلاد المقدونية اصبحت فوت يدها فانصرفت نحو الادرياتيك تتطلب منفذاً بحريًا بالاشتراك مع الجبل الاسود

وتطلبت رومانيا نصيبًا من الغنيمة فأبته عليها بلغاريا فهاجمتها وانتهز الاتراك الفرصة السانحة واسترجعوا ادرنة . ولم يكن غير اثني عشر يومًا حتى كان للجيش الروماني الفوز واصبحت رومانيا ذات الكلمة العليا في البلقان وفي عاصمتها عقدت معاهدة الصلح التي عجزت عنها الدول العظمى في مؤتمر لندن

وكان فوز الدول البلقانية وخصوصًا الصرب كسم اصاب السياسة الجرمانية في الصميم . وكان ولي عهد النمسا الارشيدوق فرنسوى فرديناند يأخذ الاهبة ليضرب الصرب ضربة قاضية ، ولكن يد القضاء كانت اعجل من يده . فبينا هو ذاهب في سيارته يوم ٢٨ يونيه سنة ١٩١٤ الى المجلس البلدي في سراجيفو والى جانبه زوجته رماه صربي يدعى كبرينوفيك بقنبلة اصابت ذراعه فدفعها عنه بحركة خفيفة فكان انفجارها بعد ابتعاد عربته . ثم شهدا الاحتفال وعادا فاطلق عليهما طالب يدعى برنسيب الرصاص من مسدسه فأصيب الارشيدوق في وجهه وزوجته في بطنها ، فقضيا ، وامسك الجانيان

غليوم الثاني على منبر الوعظ وامامه الامبراطورة

هذه الجناية هي التي اتخذتها دولتا الوسط بعد ان رأتا ضياع امانيهما في البلقان وفي الشرق وسيلة لاضرام جذوة الحرب الكونية التي التهمت الاخضر والهشيم ودارت الدائرة على صاحبي ذينك العرشين والله وارث الارض ومن عليها

obeikandl.com

الفصل الرابع والثلاثون

بعض رسائل غليوم الثاني

تثبت في هذا المقام بضع رسائل لغليوم الثاني يجد الباحث المدقق فيها وقد تداولت على بعضها سنون درساً مفيداً وذكرى ناجعة . اما اولاها فترجع الى ثلاث وعشرين سنة وقد بعث بها غليوم الثاني من دمشق الفيحاء ، يوم زارها (١٨٩٨) الى القيصر نقولا الثاني آخر آل رومانوف ، وقد وجدت في خزائن موسكو ، قال غليوم الثاني :

عزيزي نقولا

ان البرقية التي تلطفت بارسالها اليّ الى اورشليم قد شجعتني على كتابة بعض السطور اليك في ختام سياحتنا عن بعض المشاهد التي كان لها تأثير عليّ والافكار التي ولدتها في نفسي وان كان من الصعب عليّ وصفها

ان القدس كانت بالطبع محط انظارنا لما فيها من الاماكن المقدسة التي لها علاقة بالمخلص وان مجرد الافتكار في انه كان يتأمل هذه الهضاب نفسها ويمشي على الارض التي مشينا عليها يحمل القلب على الخفقان الشديد . ولكن لابد لي من التصريح بأن ليس كل ما يراه المرء من الاماكن مما يقوي فيه هذا الشعور . فان الاعتقادات المسيحية المختلفة والمذاهب المتعددة قد حالت كثيراً دون بناء الكنيسة والاديرة والمعابد الخ فان الاماكن المقدسة القديمة التي تؤدي الى الابراج العالية او الكنائس الكبرى لا مناسبة بينها وبين الاسس الكبرى التي بنيت عليها

اني عائد الى الوطن وقد تبدل شعوري واصبحت اعتقد جد الاعتقاد ان قبر مخلصنا ليس وراء كنيسة القيامة التي تلوح ضئيلة على زخارفها بالنسبة الى المسجد العمري على بساطته

ان اهم واجمل مدينة شرقية هي بلا شك دمشق اما بيروت بمنازلها الجميلة

وحدائقها الغناء واحراجها فانها تجعل المرء يحسب نفسه في مدينة في جنوب ايطاليا او في صقلية . اما فلسطين او الارض المقدسة فانها خالية الطرق من الاشجار والماء اما هنا (دمشق) فالاشياء تتغير كأنها يغيرها ساحر قهر بردى العظيم يحيي ماؤه الغياض والرياض ويجعل الطقس معتدلاً جميلاً والذي يتأمل المدينة من مكان شاهق يراها محاطة بالحدائق والبساتين والانهار على مسافة ميلين مربعين فكأنما هي دار في وسط جنة وكل دار فيها وسط جنة فان الدور العربية الهندسة ذات الساحات الرحيبة والزوايا الظليلة والعيون الصافية التى تتدفق من الرخام كلها مما توسع دائرة التصور والخيال حتى يحسب المرء انه في حلم . واني لواثق انك تسر كثيراً لو كنت هنا لانك تفهم الشرق وروح الشرق

اما استقبالنا فكان عظيماً لم يلاق مثله ملك مسيحي ابداً وقد احتفى بنا القوم فوق العادة لأني صديق سلطانهم وخليفتهم ولان سياستي معه سياسة ولاء ولطالما اشرت عليك باتباع هذه السياسة .

ان النقمة على الانكليز شديدة وبغضهم ينمو ويزداد . اما فرنسا فقد فقدت كل احترام قديم لها والقوم يحتقرونها علناً . ولا بدع فهذه نتيجة تراخي الفرنسويين في شؤونهم الداخلية فانهم ما لبثوا ينفضون أوساخهم يميناً وشمالاً حتى ملأوا اوربا كلها بالروائح الكريهة . ونظراً الى الرشوة المنتشرة في حكومتهم لا سيما في الجيش والكذب والفساد والفتن الرائجة سوقها في بلادهم ، فان القوم هنا ينظرون اليها نظرتهم الى أمة تتلاشى وتفنى . وعلى الاخص بعد انسحاب الفرنسويين المعيب من فشوده . ويحهم ماذا أصابهم بعد هذه الحملة الجريئة التي قام بها المسكين مارشان؟ لقد كانوا في موقف منيع وفي استطاعتهم أن يساعدوا الكل في افريقيا الذين يحتاجون الى المساعدة القوية

ان الاخبار قد سقطت كالصواعق على الشعوب الشرقية حتى انهم لم يصدقوها وتقول الجرائد اذا كانت هذه الاخبار صحيحة فلا ريب ان الكونت مورافياف هو الذي نصح لفرنسا ان تخطو هذه الخطوة

وعلى الجملة فان هذه الحركة كانت ضربة اليمة على « أصدقائك وحلفائك »

والمسلمون يدعون حادثة فاشوده « سيدان الثانية » ولما حادثت القنصل الفرنسوي المسكين طفق يتذمر ويقول ان كل ما بناه وبناه الذين قبله قد تداعى الى الحضيض وان فرنسا لن تنسى هذه الحادثة ابداً

هذه يا عزيزي نقولا أهم ملاحظاتي التي اكتبها اليك بحرية تامة بعد ان رأيت بام عينيّ وسمعت باذنيّ ما يجري في هذه البلاد . وقد كانت الحوادث والمشاهد التي رأيتها مصداقاً لافكاري التي عرضتها عليك فان تركيا حية لا ميتة ولا مريضة . كن على حذر من ان تمس شرف المسلمين الوطني او شرف خليفتهم .

محبة وسلاماً الى الكسيس

صديقك ونسيبك « وليم »

والرسالة الثانية بعث بها ايضاً الى نقولا الثاني في ثامن يناير سنة ١٩٠٩ على اثر ضم النمسا ولايتي البوسنة والهرسك . قال غليوم :

عزيزي نقولا

اشكرك على رسالتك المؤرخة في ٢٥ دسمبر (ك ١) التي ارسلتها اليّ مع تاتسيكيف فقد سررت بها كثيراً لما اشتملت عليه من انبائك واني مع قرينتي نجزل الشكر على تمنياتك الحسنة في السنة الجديدة . لقد صدقت في قولك ان السنة الماضية كانت ملأى بالحوادث فان ضم البوسنه والهرسك ادهش الكل وعلى الاخص نحن . لاننا لم نعرف بمقاصد النمسا الا بعد معرفتك بها . وارى من واجبي ان الفت نظرك الى هذا الامر . فان بعضهم يزعمون ان المانيا هي التي أغرت النمسا فاقدمت على هذا العمل . هذا زعم باطل وتهمة كاذبة كالتي ظهرت في مسألة سكة حديد السنجق واني مسرور لان رسالتك تدل على ان الشعب الروسي قد عرف جلية الامر . أما الحقيقة الواضحة فهي ما دامت النمسا قد خطت هذه الخطوة دون ان تستشيرنا فاننا مهما ترددنا لانقدر الا ان نقف بجانبها كحلفاء مخلصين وانت اول من يوافق على هذا الاخلاص . . . ولكن هذا لايعني اننا سنطرح صداقتنا القديمة مع روسيا

جانباً . فانا اليوم واثق اكثر من ذي قبل بضرورة اتحاد روسيا والمانيا وامكانه فان اتحادهما يحفظ السلام ودستور الملكية . وانت تعرف رأيي بهذا الخصوص كما تعرف باني مخلص في صداقتي واستطيع ان ابرهن ذلك بالحقائق فقد تحملت مسؤوليات من اجلك ايام كانت روسيا تجتاز في الضباب

ولما كنت اعرف قيمة الصداقة التي بين الامتين اعتقد انه من الضروري ازالة كل ما من شأنه ان يضر بهذه الصداقة ولا شك انك تحمل كلامي محملاً حسناً اذا انا صارحتك الحديث فقد صورونا في المدة الاخيرة باننا مرتاعون مضطربون من اتفاقك مع انكلترا على اسيا الوسطى . وقد ظهرت هذه الاشاعات عند ما زارك ادوارد السابع في ريفال . كلها اشاعات باطلة . فنحن نعرف ان روسيا في الوقت الحاضر تتحاشى الخلاف مع انكلترا ولذلك تلين لها كلما لانت . فضلاً عما تقدم لقد اكدت لي رسمياً مراراً انك لا تتفق مع انكلترا الا في المسائل الطبيعية العامة اما وانا حاصل على كلمتك فأي شيء آخر اطلب ؟ اننا مثلك نود تحسين علاقاتنا مع انكلترا وأنا أتوقع بذاهب الصبر زيارة الخال ادوارد السابع برلين في الشهر القادم وارجو ان يكون لهذه الزيارة نتائج مفيدة للسلام

ياعزيزي نقولا لا اتفاقك مع انكلترا بشأن اسيا الوسطى ولا اجتماعكما في ريفال أحدث قلقاً أو استياء في المانيا ولكن الذي ساءنا أمر آخر هو ابتعاد روسيا عنا بالتدريج في السنتين الاخيرتين ثم تقربها المستمر من الدول التي لسنا معها على ولاء . فان الاتفاق الثلاثي بين فرنسا وروسيا وانكلترا قد امتلأ العالم بالحديث عنه كحقيقة واقعة والصحافة الانكليزية والفرنسوية لا تعرض لها فرصة الا انتهزتها لتبين للملأ ان هذا الاتفاق ضد المانيا . اما الصحافة الروسية فانها كثيراً ما رددت نغمات رصيفاتها

ثم ان روسيا اظهرت ريبتها بلا سبب بالمانيا في قضايا كثيرة مثال ذلك ما جرى في العجم والصين . اما المسائل الاخرى التي تهمنا كسكة حديد بغداد

فان روسيا لم تقف بها معنا في حين اننا كنا نعتمد عليها وهذا ما ادهشنا وربما زاد في التباعد بيننا

لا احتاج الى ان اؤكد لك ان هذه المسائل كلها تهمني كثيراً ومن واجبي ان الفت نظرك الى هذه الحالة كما هي بعينها والى ما تقود اليه قبل فوات الوقت

ان ميل روسيا في سياستها الى التوكوء على انكلترا وفرنسا ظهر في الازمة الحاضرة ولم تسأل حكومتك حكومتي عن مسألة البوسنه والهرسك الا بعد ان وضع بروغرام لعقد مؤتمر وصودق عليه في باريس ولندن وقد نشرت الصحف الفرنسوية هذا البروغرام قبل وصوله الينا واخذت الصحف الانكليزية والروسية والفرنسوية تهتف للاتفاق الجديد وتقرع له الاجراس. ان الحالة لا تزال كما كانت عند ما زار اسفولسكي « ناظر الخارجية الروسية » برلين فحكومتي لم تتحول عن موقفها وهي تراعي النقط التي تتألف منها الآمال الروسية غير اننا لا نقدر ان نلح على حليفتنا أن توافق على بروغرام نعلم نحن انها لاتقبله . ناهيك عن كون البروغرام وضع بدون استشارتنا ففسر العالم الخارجي هذا الامر بما لا ترضاه . ولو جرت المسألة في غير هذا المجرى لكان في امكاننا ان نقترح على حكومتك ان لاتضع هذا البروغرام بل تدور المفاوضات بين الوزارات وهكذا نستطيع ان نخدم روسيا خدمات جلى ولو شاورتنا روسيا في الوقت المناسب لما كانت المسائل لابسة ثوبها الحاضر ولا آلت الحالة الى ما هي عليه الآن من الخطورة .

واني لا ادري في الظروف الحاضرة كيف استطيع ان اكون وسيطاً بين الفريقين مع اني قد فعلت هذا الامر . واسمح لي ان اقول ان اعتقاداتك بالنمسا ومقاصدها قاتمة مظلمة وانك قلق اكثر مما يجب . اما نحن فلا نشك ابداً في ان النمسا لا تريد ان تهاجم سربيا فان هذا لايوافق عليه الامبراطور فرنسوى جوزيف الحكيم المتروي كما اننا لا نعتقد ان اهرنتال « رئيس الوزارة النمسوية » يفكر في مثل هذه الخطط . انما من الضروري ان تخلد حكومات البلقان الى السكينة وتكف عن الاستعدادات الحربية . ان هذه الحكومات الصغيرة مقلقة . واقل تشجيع من أي مركز كان يستفزها

ان الخطابات التي القيت في مجلس النواب السربي كان لها وقع سيء عليّ لما فيها من المنازع الثورية . ان هؤلاء القوم كانوا معروفين عند العالم منـذ ستة اعوام بأنهم « قتلة ملكهم »

آمل من اعماق قلبي ان تحل هذه المسألة على ما فيها من الصعاب حلاً مرضيًا وانا مستعد لان أفعل ما في وسعي . خذ كلمتي عهداً

سيحمل هيشنر هذه الرسالة اليك واسأل المولى ان يهبك السلام والنجاح والسعادة في السنة الجديدة

فكتوريا ترسل معي محبتها الخالصة الى الكسندره واكون سعيداً اذا جاء النجاح كهدية الميلاد . صدقني اني صديقك الودود ونسيبك المخلص

« غليوم »

وهذه بضع رسائل تبودلت بين القيصرين على اثر مقتل ولي عهد النمسا وتأهب هـذه الدولة للانقضاض على الصرب . وهي مأخوذة عن الكتاب الابيض الالماني :

من الامبراطور غليوم الثاني الى القيصر نقولا الثاني في ٢٨ يوليو الساعة ١٤ والدقيقة ٤٥ ليلاً

عرفت بمزيد القلق التأثير الشـديد الذي احدثه في امبراطوريتك عمل النمسا فالتحريض المستمر في بلاد الصرب منـذ عدة سنين ضد النمسا بلا تعقل ولا ذمة أفضى الى قتل ولي عهد النمسا فرنسوى فرديناند

ولا تزال الروح التي أفضت بالصرب الى قتل ملكهم وملكتهم متملكة نفوسهم ولا شك بانك توافقني على انه يهمنا نحن الاثنين كما يهم كل ملك وذي سلطان أن يعاقب الذين تقع عليهم تبعة ذلك . واني لاعرف من جهة اخرى كم يعز ويصعب عليك وعلى حكومتك ان تسيروا ضد الرأي العام وعكسه

واني بفضل الصداقة التي تربطني منذ عهد بعيد بأحكم الروابط بالامبراطور فرنسوى جوزيف سأبذل كل نفوذي على النمسا لاحملها على الاتفاق مع روسيا

جهاراً وبروح السلم والامان . وآمل من صميم فؤادي ان تؤيد مساعيّ لتزيل الصعاب القائمة الآن

« غليوم »

***

من نقولا الثاني الى غليوم الثاني في ٢٩ يوليو الساعة ١٠ صباحاً

يسرني أن أراك قد عدت الى المانيا في هذا الوقت الحرج . واني لارجو منك كل الرجاء أن تعاونني . فقد شهرت حرب معيبة على أمة ضعيفة . فكان الاشمئزاز عظيماً جداً في روسيا وشاطرت الشعب هذا الاشمئزاز . واني لاحس منذ الآن باني بعد قليل امسي عاجزاً عن مقاومة الضغط عليّ واضطر الى اتخاذ الوسائل التي تدعو الى الحرب

فلتلافي خطب الحرب التي ستكون اوربية ارجو منك باسم صداقتنا القديمة بأن تبذل المستطاع لمنع حليفتك عن ان تتورط

« نقولا »

***

من غليوم الثاني الى نقولا الثاني في ٢٩ يوليو الساعة ٦ والدقيقة ٣٠ مساء

تلقيت رسالتك واني اشاطرك الرغبة في صون السلم الا اني لا استطيع ان اعتبر الحرب التي شهرتها النمسا حرباً معيبة . لان النمسا توقن بعد الاختبار ان مواعيد الصرب اذا لم تكن الا على الورق لا قيمة لها

وعندي ان عمل النمسا يجب ان يعتبر سعياً لقيام الصرب بمواعيدها ، واني موقن كل الايقان بصدق هذا الرأي لان حكومة النمسا تعهدت بانها لاتحاول غنم أرض ولاتملُّك شيء

وأرى أن الاتفاق بين حكومتك وحكومة فينا أمر ممكن ومرموق ، والاتفاق على الوجه الذي بسطته تؤيده حكومتي كل التأييد ، ولا شك بأن الذرائع الحربية تعتبرها النمسا تهديداً قد يفضي الى الشر والبلاء الذي نريد دفعه ، ويجعل القيام بمهمة الوساطة التي القيتها على عاتقي بكل ارتياح ، اجابة لطلبك بحق الصداقة ، امراً مستحيلاً

« غليوم »

من غليوم الثاني الى نقولا الثاني في ٣٠ يوليو الساعة ١ مساء

لقد نيط بسفيري ان يبلغ حكومتك الاخطار والنتائج السيئة التي قد تنتج عن التعبئة . أما النمسا فكما قلت لك أمس لم تعبىء ضد الصرب سوى جزء من جيشها

فاذا انت عبأت الآن ضد النمسا كما هو ثابت محقق تصير المهمة التي نطتها بي صعبة بل مستحيلة . فالقرار الذي تقضي الحالة باتخاذه ملقى على عاتقك فانت الآن مسؤول عن الحرب والسلم معاً

« غليوم »

***

من نقولا الثاني الى غليوم الثاني الساعة ١ مساء

اشكرك على ردك السريع . وفي هذه الليلة ارسل تاتيشف بالتعليمات . أما الوسائل الحربية فانها تقررت منذ خمسة ايام لنحتاط بها مقابل استعداد النمسا . واني لآمل أن هذه التحوطات لاتحول دون مهمتك في الوساطة التي أعتمد عليها كثيراً . فنحن بحاجة الى ضغطك على النمسا حتى تتفق معنا

« نقولا »

***

من نقولا الثاني الى غليوم الثاني في ٣٠ يوليو ليلاً

اني لأشكرك على وساطتك التي تؤملني بحل سلمي . وانهُ يستحيل عليَّ الآن ايقاف الاستعدادات الحربية التي قضت بها التعبئة النمسوية ونحن لانريد الحرب . وما دامت المفاوضات دائرة مع النمسا لا تتخذ جيوشي خطة العداء . اني اعدك بذلك بشرف وعدي واني لواثق بفضل الله وعنايته . وآمل بنجاح الوساطة في فينا خدمة لاوطاننا ولسلم اوربا

« نقولا »

***

من غليوم الثاني الى نقولا الثاني في ٣٠ يوليو نصف الليل

بينما كانت وساطتي التي بذلتها اجابة لطلبك تعمل لدى حكومتك وحكومة فينا حركت جنودك ضد حليفتي النمسا الامر الذي جعل عملي باطلاً بلا جدوى على اني لم اقعد عن بذل الوساطة ولم اوقف مسيرها . الا اني تلقيت اخباراً اكيدة

عن استعداداتك الحربية على حدودي فتبعة تأمين بلادي تقضي عليّ بأن اقابل ذلك بالوسائل الدفاعية

ولقد بذلت كل ما بوسعي لحفظ السلم . فانا بعد الآن لا اتحمل تبعة البلاء الذي يهدد العالم المتمدن . وبيدك أنت حتى الآن الحيلولة دون ذلك . ولا يهدد أحد شرف روسيا وقوتها فكان باستطاعة روسيا ان تنتظر نتيجة مساعيّ

والصداقة التي اقسمت لجدي وهو على فراش الموت بحفظها لك ولوطنك كانت مقدسة في نظري ومكنت وليًا لروسيا في احرج مواقفها وبالاخص في الحرب الاخيرة

والآن لا يمكن ان يصان سلم اوروبا الا بواسطتك اذا قررت حكومتك ايقاف التأهب العسكري ضد النمسا والمانيا « غليوم »

***

فأجابه نقولا الثاني في اول اغسطس الساعة ٢ بعد الظهر

اخذت تلغرافك . ولا ادري ما الذي يوجب عليك التعبئة . على اني كنت وددت ان احصل منك على مثل الضمانة التي منحتها لك من ان التدابير المأخوذة غير مقصود منها الحرب ، واننا نواصل مفاوضاتنا في ما يعود بالخير على المملكتين ويؤيد السلام المرغوب فيه من صميم الفؤاد . ولا اخال الا ان صداقتنا الوثيقة المبتلاة بهذه التجربة تتوفق بعون الله الى منع اراقة الدماء . واني منتظر جوابك بملء الثقة « نقولا »

***

وهذا ما أجاب به غليوم الثاني في اليوم نفسه وفيه البرهان الاكيد على تعمد غليوم الثاني وحليفه الحرب :

اشكرك على تلغرافك . على اني اوضحت امس لحكومتك الوسيلة الوحيدة التي يمكن بها مجانبة الحرب(١) ومع اني طلبت ان يصل اليّ الجواب عند الظهر لم

---

(١) يريد تسليم روسيا تسليماً تاماً . وهي الغاية المنشودة من اول المفاوضات

يردني من حكومتك جواب ما حتى هذه الساعة من اجل هذا لم اجد بداً من تعبئة جيشي

ان الوسيلة الوحيـدة لاتقاء كارثة لاتعد اهوالها انما هو ورود جواب سريع واضح من حكومتك لايدع مجالاً للالتباس . واني مع الاسف لارى من المستحيل الرد على موضوع تلغرافك (١) قبل وصول الرد المنتظر اليّ . كما اني ارى من الواجب عليّ ان اطلب منك بكل صراحة ان تصدر الاوامر من غير ابطاء الى جيوشك بأن لاتمس تخومنا أقل مساس كائناً ما كان (اه) « غليوم »

***

في اثنـاء ما تقدم اقترحت انكلترا بلسان وزير خارجيتها السر ادورد غراي عقد مؤتمر ينظر فيه في فض الخلاف القائم ما بين النمسا وروسيا بالتي هي احسن ولكن المانيا رفضت هذا الاقتراح بحجة انه ضرب من التحكيم وان عقد مثل هذا المؤتمر لا يسوغ الا بطلب الدولتين الاختصاصيتين النمسا وروسيا . وان في رفضها لدليلاً لا يقبل الرد على نياتها السوداء

ونختتم هذا الفصل بتلغراف اخير لغليوم الثـاني بعث به الى جورج الخامس ملك انكلترا بتاريخ اول اغسطس . وحكاية هذا التلغراف ان البرنس لخنوسكي سـفير المانيا في لندن كتب الى مستشار الامبراطورية بتمن هلويج يقول : دعاني السر ادوار غراي الى التلفون وسألني اذا كنت استطيع ان اصرح باننا لا نهاجم فرنسا اذا نشبت الحرب بين المانيا وروسيا وظلت فرنسا على الحياد . فأجبته بأني لا استطيع ان اتحمل مسؤولية مثل هذا التصريح »

وهذا ما كتب غليوم بهذا الصدد الى ابن خاله :

تلقيت مكاشفة حكومتكم المتضمنة عرض حياد فرنسا بضمانة بريطانيا العظمى . على ان هذا العرض جاء مرتبطاً بالاستفهام عما اذا كانت المانيا تتعهد في مقابل هذا

---

(١) اي التعهد بعدم مباشرة هجوم

الشرط بعدم مهاجمة فرنسا . بيد ان ثمة اسباباً فنية تقضي بمواصلة التعبئة – التي صدر الامر بها بعد ظهر هذا النهار – على الحدود الشرقية والغربية حسب الاستعدادات المبتدأ بها . ولا سبيل الى اصدار اوامر مناقضة فقد وصل اليّ تلغرافك متأخراً لسوء الحظ . ولكن اذا كانت فرنسا تعرض حيادها بضمانة اسطول انكلترا وجيشها(١) فاني اعدل عن مهاجمة فرنسا واستخدم جنودي في اماكن اخرى . على اني ارجو ان لايبدو في فرنسا اقل تهيج في الافكار . فان الجيوش المرابطة على الحدود تتوقع صدور الاوامر التلغرافية والتلفونية لتزحف الى الامام وتجوز التخوم الفرنسوية (٢)

وهذا ما أجاب به جورج الخامس

اخذت تلغرافك ويلوح لي انه حصل سوء فهم بخصوص الاقتراح الذي روي حصوله في اثناء محادثة ولائية دارت بين البرنس لخنوسكي والسر ادوار غراي ، وكانا يتذاكران في الوسيلة التي يمكن بها ارجاء اشتباك الحرب بين المانيا وفرنسا ريثما يتوصل الى التوفيق بين النمسا وروسيا . وسيقابل السر ادوار غراي البرنس لخنوسكي صباح غد ، ويوضح له ما كان من دخول اللبس عليه (اه)

جورج

وقد تمت المقابلة فعلاً وفي اليوم التالي (٢ اغسطس) نقل البرنس الى مستشار الامبراطورية النتيجة وخلاصتها ان اقتراح السر ادوار غراي بشأن حياد فرنسا كان من غير سبق اتفاق مع هذه فاعتبر باطلاً واهمل

وكان من جراء هذا الالتباس ان استنزل سر غليوم الثاني من بين فكيه

---

(١) كانه يتطلب ضمناً عقد محالفة انكليزية المانية لغل يد فرنسا

(٢) في هذا برهان آخر على ان اوامر الهجوم اصدرت من قبل اول اغسطس

الفصل الخامس والثلاثون

الحرب وتبعة غليوم الثاني

البحث في « التبعات الحربية » خصوصاً بعد حرب طاحنة كالحرب الكونية الكبرى تفانت فيها عشرون دولة من كبريات دول الارض وصغرياتها ، بحث طويل عريض لايضطلع بعبئه غير فحول المؤرخين . وبعد مرور السنين . ولسنا نحن من هذا في شيء . وانما الذي نرمي اليه . بعد الخلاصة التاريخية التي بسطناها . و بعد النماذج من رسائل غليوم الثاني التي نشرناها . ان نلم بشيء مما يقع على عاتق الامبراطور السابق من تلك التبعة الثقيلة . معوّلين في ذلك على بحث لاحد كتاب الفرنسيس اختتم به كتاباً له وصف فيه تطور سياسة غليوم الثاني تطوراً حربياً . قال المكاتب ما خلاصته :

« الفت اوربا غير الجرمانية منذ حادث اغادير (١٩١١) تنسم النسمات الحربيـة التي كان الهواء متشبعاً منها ومع هذا فلما كانت جناية سراجيفو ساورتها المخاوف . ويقال ان الامبراطور فرنسوى جوزيف لما كاشفته خلياته القديمة السيدة شرات بمصرع الارشيدوق فرنسوى فرديناند لم يزد على أن صاح : « ويلاه أفي كل يوم نكبة » ولكن العارفين يقولون ان الامبراطور لم يكن شديد الاسف على ولي عهده — والبرهان المأتم البسيط الذي اقيم له — وانما كان ميله وعطفه منصرفين الى الارشيدوق شارل الذي تولى الملك بعده ثم خلع بعد الانكسار

ومهما يكن فان قتيل سراجيفو كان ذا نزعة حربية محضة . وكان شديد الوطأة على الصقالبة ومنهم الصربيون وهذا ما اهاب بهم الى الفتك به . فاتخذت الاحزاب العسكرية في المانيا والنمسا والمجر هذه الجناية وسيلة الى غاياتها فكان الانذار الذي بعث به الى الحكومة الصربية ملؤه التهديد والوعيـد . على ان المانيا زعمت انها لم تطلع على صورة الانذار الا بعد ارساله وهذا غير صحيح فان السفير الالماني في

الولايات المتحدة اكد ان حكومته كانت قد وافقت مقدماً على ذلك الانذار وبرهان ذلك في وقوف المانيا الى جانب النمسا من اوائل الخلاف ، وتأييدها اياها ضد الصرب ليتسنى لها ان تصل هي الى ما ترمي اليه من مهاجمة روسيا وفرنسا . فتبعة الحرب والحالة هذه يجب ان تقع على الشعب الالماني وعلى امبراطوره على حد سوى ، بل ربما كان الامبراطور اعظم ذنباً لانه كان في استطاعته ان يكبح جماح شعبه وان يضع حداً للمطامع النمسوية بقبول مبدأ التحكيم الذي عرض عليه اولاً وثانياً (١)

أفكان غليوم الثاني يستبد برأيه كل هذا الاستبداد لولا تعمده الحرب التي كانت الاحزاب العسكرية الجرمانية تتطلبها من زمن ؟

ولقائل ان يقول اليس للنمسا نصيب من التبعة الحربية ؟

بلى . ولكننا لا نعتقد انها كانت تروم الحرب كيفما كانت الحال . قد يكون الارشيدوق فرنسوى فرديناند ، حين اجتمع بغليوم الثاني صمم على شيء من ذلك ، ولكن في شهر يوليو سنة ١٩١٤ كان الارشيدوق قد قضى وكانت حاشية الامبراطور اقرب الى المسالمة من حاشية ولي عهده . ولولا تحريض المانيا واغراؤها لما كانت الحرب . ولكن النمسا مجرمة على كل حال لانها تقاوت وهي خمسون مليون نسمة على ضعيف ونعني الصرب وهي لاتتجاوز اربعة ملايين . فحكايتها معها حكاية الذئب مع الخروف . فولي العهد قتل في ارض نمسوية وقاتله رعية نمسوية فما ذنب الصرب حتى تكون الكفارة عليها

اذن ما الذي اهاب بالمانيا وهي المحرضة الاولى على هذه الحرب والساعية اليها الى التغرير بنفسها وركوب هذا المركب الخشن ؟ أهابت بها عوامل شتى في مقدمتها المطامع والكبرياء ، اهابت بها الى الحرب لهفة الحزب العسكري الى رؤية النار

---

(١) اقترحت انكلترا عقد مؤتمر لفض الخلاف كما تقدم . واقترح نقولا الثاني احالة المسألة الى محكمة التحكيم في لاهاي . فكان نصيب الاقتراحين من المانيا الرفض

مستعرة . وان غليوم الثاني نفسه لم يجد في نفسه عزماً صادقاً على صد ذلك التيار فجاراه، ولو اراد لما عصاه . قال صاحب كتاب « أتّهم » J accuse : « لماذا لم يكن لالمانيا على حليفتها النمسا في سنة ١٩١٤ النفوذ السلمي الكبير الذي كان لها قبل عام؟ لانها قبل عام كانت لا تريد الحرب – او احرى ان يقال لم تكن اخذت لها اهبتها بعد ، اما في سنة ١٩١٤ فانها كانت تريدها من غير بد »

على ان المدافعين عن غليوم الثاني يريدون ان يؤيدوا ان حكومته كانت اشد اجتراماً منه ، لانه في اثناء اشتداد الازمة كان يتجول في بحر الشمال . على اننا لا نقول مع القائلين ان هذه الرحلة انما باشرها تمويهاً وذراً للرماد في العيون ، ولكننا نقول انه لما عاد من رحلته لم يكن التوفيق بين النمسا وروسيا بمساعيه مستبعداً لو صحبه من قبله شيء من حسن النية . فهو كان يدعي انه الصديق الحميم لنقولا الثاني ولكنه بعد رجوعه الى برلين تناسى هذه الصداقة ومال بكليته الى انصار الحرب من وزرائه وسياسييه وقواده وفي طليعتهم ولي عهده الذي كان يرى بذاهب الصبر دنو اليوم العظيم .

ثم مما يؤيد ادانة المانيا انك لاتجد في مستنداتها الرسمية عن اسباب الحرب مستنداً واحداً يوضح ان غليوم الثاني دعا حكومة النمسا الى الاعتدال . واعظم من هذا انه لم يردّ على اقتراح القيصر نقولا احالة الخلاف الناشيء بين النمسا والصرب الى محكمة التحكيم في لاهاي . أليس في هذا دليلاً قاطعاً على تعمده الحرب . قال البارون بايلنس : « زعموا ان غليوم الثاني انما كان آلة في يد حزب يرى الحرب الوسيلة الوحيدة لبقاء سيطرته ونفوذه . قد يكون ذلك ولكنه في الوقت ذاته انما اصغى الى دعاة هذا الحزب لان آراءهم جاءت مطابقة لآرائه »

وقال الاب وترلاي الايزاسي : « ان غليوم الثاني انما كان مدفوعاً برأي عام أثاره دعاة الجامعة الجرمانية ... فان الشعب الالماني هو الذي أراد الحرب، وان طائفة المفكرين والعلماء وهم عندهم في مقام اركان حرب الجامعة الجرمانية هي التي أخذت الاهبة لها على مهل . فكانت الصدمة القوية صادرة من اسفل . وربما كان غليوم الثاني يؤثر ارجاء الحرب الى ايام افضل . ولكنه لم يتهيأ له ذلك ازاء اصرار

الاحزاب العسكرية والجمعيات الوطنية . فتبعة الحرب واقعة والحالة هذه على السواء على القواد ، والعلماء ، ورجال الصناعات ، والتجار ، والعمال ، فكلهم في الهوى سوى . . .

اربعة اجيال من بيت هوهنزولرن

غليوم الاول وابنه فريدريك وحفيده غليوم الثاني وابن حفيده فريدريك غليوم

وفي الجملة فان غليوم الثاني اضرم جذوة الحرب ولكنه انما فعل باغراء صفوة مختارة من رعيته لم تكن صادقة الطوية ولا بعيدة النظر ، فهو قد كان في اوائل عهده بالملك ذا نزعات سلمية ، فاذا كان قد تطور في العهد الاخير فنزع الى السياسة الحربية ، ولم يبذل اقل جهد ، منذ سنة ١٩١١ لاتقاء نكباتها ، فلأنه انتقلت اليه هو ايضًا عدوى الحرب فلم يجد من نفسه عزمًا صادقًا على مقاواة شعب فقد صوابه

الفصل السادس والثلاثون

غليوم الثاني في منفاه

توقيع الهدنة — تنازل الامبراطور — وفاة الامبراطورة
اليأس احدى الراحتين

في الثامن من شهر نوفمبر سنة ١٩١٨ تلقى المرشال فوش قائد جيوش الحلفاء والى جانبه الاميرال وميس والجنرال واي غند الانكليزيان - وفد الهدنة الالماني يرأسه الوزير ارزبرجر. فعرضت عليه شروط الهدنة ورفض المرشال فوش توقيف القتال في الحال ثم امهل الوفد اثنتين وسبعين ساعة لاعطاء الجواب واستأذن الالمانيون في ارسال مندوب الى المعسكر الامبراطوري فأذن لهم. ووصلت الشروط الى الامبراطور والى المرشال هندنبورغ فقرأها ثم بعثا بها الى الحكومة في برلين. قال فهرنباخ بعد ذلك: «كنت مع ابرت وشيدمان ولانسبرغ في قصر المستشارية فبينا شولز يقرأ شروط الهدنة واذا بتلغراف وارد من هندنبورغ يطلب فيه الرد بالقبول في الحال، لانه لم تعد له قوة على امساك جنوده... فاذا لم تعقد الهدنة اضطر الى التسليم بجيشه كله. فسأل ابرت: من منكم يقول برفض الهدنة؟ فكان سكوت رهيب، واسأل الله ان لا يريني بعد ساعة فاجعة كتلك الساعة». وفي الحال ارسلت رسالة لاسلكية بقبول الشروط المعروضة وكانت بتوقيع «مستشار الامبراطورية» وكان توقيع الهدنة يوم ١١ نوفمبر سنة ١٩١٨ الساعة الخامسة صباحاً

وتخللت مفاوضات عقد الهدنة ثورة داخلية في المانيا نشأت اولاً في همبورغ وكيال وارتفعت في خلالها اصوات كثيرة بطلب خلع غليوم الثاني. ثم الف البحارة المتمردون لجنة سوفييت ورفعوا العلم الاحمر فاضطر البرنس هنري البروسوي ان يتعلق بأذيال الفرار

وفي ٩ منه نادى شيدمان بالجمهورية الالمانية وبتنازل غليوم الثاني. وقد اكرهه

عليه الاشتراكيون اكراهًا . وفرّ مع ولي عهده الى هولندا . على انه لم يوقع صك التنـازل الا بعد ثلاثة اسابيع (في ٢٨ نوفمبر) في قصر امرونجن بعد ان فقد كل أمل بالعودة الى العرش

ولم تكن الحكومة الهولنـدية تتوقع وصول مثل هذا الضيف المفاجىء فبينما الكونت بنتنك صاحب قصر امرونجن ينتظر وفود رهط من اصدقائه وهو في حيرة من امره من جراء توعك غير واحد من خدمه ، قرع جرس تلفونه فاذا مخاطبه حاكم ولاية اوترخت الهولندية . وشدّ ما كان دهشـه حين سمعه يقول له ان امبراطور المانيا غادر معسكره فارًا الى هولندا فأمسك به على حدودها الثمان من خفراء الحدود فأصبح من واجب الحكومة الهولندية ان تعد صرحًا لاقامته . وعليه فهي تلتمس من الكونت بنتنك معاونتها على هذه الضيافة بقبول الامبراطور في قصره يومين فقط . وحاول الكونت الاعتذار بتقيـد معظم خدمه بقيود المرض فلم يقبل له عذر . فالتمس الامهال الى الغد

وفي اليوم التـالي وصل غليوم الثاني وصحبه الى قصر امرونجن ، ثم لحقت به الامبراطورة ، وظلوا في هذا القصر برهة طويلة ، ثم اتيح للامبراطور قصر جميل في بلدة « دورن » تحيط به اراض واسعة فاشتراه وانتقل اليه

ولقد حاول كثيرون من مخبري الصحف الغربية الكبرى ومتنسمي الاخبار لها مقاربة غليوم الثاني في العزلة التي اختارها بعد تنازله عن العرش فلم يكن الى ذلك من سبيل . وانما أتيح مرة لمصور انكليزي ان يرى غليوم الثـاني يتمشى في حديقة قصر امرونجن ويأخذ صورته بحيلة تذرع بها اذ اختبأ في نقالة كبرى موسوقة تبنًا اما بعد انتقال الامبراطور السابق الى قصر دورن فلم يتهيأ لاحد من كتاب الصحف في ما نعلم أن يقابله

وكان غليوم الثاني اذا استوثق من عدم وجود اجنبي في دورن يخرج فيحادث العمال الذين كانوا يشتغلون له عند مدخل القصر . اما اذا اتصل به ان في البلدة اجنبيًا فانهُ يحتجب عن الابصار . وكان له رجال اخصاء يترصدون كل قادم ويوافونهُ بخبره قبل ان تمر بضع دقائق على وصوله وربما كان للحكومة الالمانية نصيب

من هذه المحاذرة . لانها لاتود ان يكثر اللغط حول مهمة وقعت اليها على كره . نعم ان غليوم الثاني وولي عهده ليسا اسيرين في هولندا ولكنهما في الوقت ذاته ليست لهما حرية مطلقة

وفاة الامبراطورة

في الاسبوع الثاني من شهر ابريل — نيسان من العام الماضي (١٩٢١) اشتدت وطأة الداء على الامبراطورة وهي في عزلتها مع الامبراطور فتناقصت ضربات نبضها وعسر عليها التنفس شيئًا فشيئًا . ولكن طبيبها المعالج وهو الدكتور هاختر خفف عليها الام الاحتضار بالحقن تحت الجلد الى ان كانت الساعة السادسة من صباح يوم الاثنين الحادي عشر من الشهر المذكور ففاضت روحها الى خالقها وارتاحت من الامها واشجانها . وكان الى جانبها ساعة جادت بالنفس الاخير زوجها غليوم الثاني وولدها البرنس ادالبرت . ثم اقبل سائر اولادها [١] فودعوها الوداع الاخير . ونقلت جثتها الى بوتسدام حيث دفنت في مدفن الاسرة الامبراطورية . ورافق الامبراطور السابق وولي عهده الجثة حتى الحدود الهولندية فقط

والامبراطورة المتوفاة هي بنت البرنس دي سوندربرغ اوغستنبورغ الذي نازع كرستيان التاسع ملك الدانمرك دوقيتي شلسويك وهولستن على اثر انقراض سلالة اولدنبورغ بوفاة فريدريك السابع آخر ذكر منها . وقد أيده بسمرك يومئذ في مطلبه ، ولما اعرب غليوم الثاني (١٨٨١) عن رغبته في الاقتران بالاميرة اوغستا

---

(١) كل ابناء غليوم احياء يرزقون الا اصغر البنين وهو البرنس يواكيم الذي تعجل الموت انتحاراً في شهر يوليو سنة ١٩٢٠ بسبب اضطراب عقلي . هذا الاميركان قد تزوج في اوائل سنة ١٩١٦ بالاميرة ماري اوغستا على غير رضى من ابيه فلم يحضر حفلة زواجه . ثم شاع بعد ذلك ما يفيد عدم اتفاق الزوجين ورغبة الامير في الطلاق . فاذا صح ذلك فالاضطراب العقلي الذي اهاب به الى الانتحار يرجع الى سبب عائلي داخلي

فكتوريا اشترط بسمرك ان تمهر الاميرة بالدوقيتين المذكورتين فكان ما اشترط وضمنا من ذلك اليوم الى الامبراطورية الالمانية على ما سبق لنا بيانه في غير هذا الموضع

وقد اشتهرت الاميرة المتوفاة بالرقة في معاملة ابنائها على عكس والدهم غليوم الثاني(١) كما اشتهرت بتعصبها لمذهبها اللوثيري ، حتى يقال انها طردت من القصور الامبراطورية ليس فقط منتحلي العقيدة الكاثوليكية بل ايضاً المنتمين الى مذاهب بروتستانية مخالفة للمذهب اللوثيري . ومما يروى في هذا الصدد انهُ اتفق في احدى الليالي الراقصة المحياة في القصر الامبراطوري ان سفراء الدول الاجنبية وزوجاتهم كانوا ملتفين حول الامبراطور والامبراطورة كالحلقة المفرغة فذات حين دنت رئيسة التشريفات من الامبراطورة وهمست في اذنها ان السيدة ليشمن عقيلة سفير الولايات المتحدة متأخرة بين رهط من الضباط ، وان من المستحسن أن تشير اليها الامبراطورة بأن تتقدم ، فلم تزد هذه على أن أجابت رئيسة التشريفات من فورها : « انها في المركز اللائق بها فلتبقَ حيث هي »

---

(١) قلما كانت العادة في بيت هوهنزولرن تأديب الاولاد بالعصا . وقد كتب موريس بوخ سكرتير بسمرك في كتاب مذكراته ان هذا الوزير سئل مرة عن صحة هذه النظرية فلم يجب مباشرة ولكنه قص على سامعيه النادرة الآتية . قال : اتفق لاحد الامراء الصغار ان هاج لامر ما حنق مربيته عليه فانهالت عليه بضرب موجع . . . على قفاه . ثم طفقت بعد ذلك تبدي أسفها مما كان قائلة لصاحب السمو الصغير : تأكد ان هذه الضربات آلمتني بقدر ما آلمتك . فسألها البرنس . . . غليوم (الذي اصبح بعد ذلك غليوم الثاني) : وهل آلمتك في الموضع ذاته . . .

أما الامبراطورة فلم تكن لها هذه القسوة . دخل غليوم الثاني يوماً على اولاده في حجرة الدرس فوبخهم توبيخاً مراً حتى سالت عبراتهم ملء الشؤون . واذا بالامبراطورة مقبلة موسعة الخطى فسمعت الامبراطور يصيح . اريد طاعة عمياء . . . فانا هنا السيد . . . فأجابته زوجته . نعم انت السيد في مملكتك اما هنا فالامر للسيدة . . . وهي انا

وكان كل ذنب السيدة ليشمن الى الامبراطورة انها كانت يهودية المولد . فلم تكن والحالة هذه منظوراً اليها منها بعين الرضى

ولقد كان جزع غليوم الثاني بعد وفاة زوجته شديداً حتى اننا نكاد لانصدق النبأ الذي نقله روتر بتاريخ ٥ دسمبر سنة ١٩٢١ عن برلين من « ان جريدة زولي فهريلات تؤكد ان غليوم الثاني عازم على الزواج . وانه اختار في ما يقال ارملة من دنتزيك كان زوجها السابق ضابطاً وقتي حتفه في الحرب »

ولكن تلغرافا آخر بتاريخ ٢٩ منه ورد عن طريق امستردام وهو يؤكد الخبر ويقول ان الارملة المعنية تدعى مدام راشول . وقد نجز طبع هذا الكتاب قبل ان تثبت من صحة الخبر

ومما يؤيد ترجيحنا ما رواه صديق لغليوم الثاني هولندي الجنس تربطه به مودة قديمة . هذا الصديق زاره في منفاه فأخذ غليوم يشكو اليه عذاب الوحدة ، ولوعة الوحشة ، ويبسط بين يديه ما يقاسي في مقر يراه مظلماً ، بعد ان افل من سمائه نجم الامبراطورة التعسة التي كانت تعزيته الوحيدة في بلواه حتى آخر دقيقة من حياتها

قال غليوم : « حتى مع اعلاني المستحيل وأطمع في الرجوع الى المجد والصولة ، وأنا أشعر ان الذراع الذي كنت أتكئ عليه في أشد ساعات الكآبة والاعياء قد طوي عليه الكفن وسطا عليه الفناء ... لقد تراكمت على رأسي المصائب فما تركت في فؤادي شعرة سوداء ، ولكنها كانت أشد وطأة على عاتق « الرفيقة المرحومة » فجللت رأسها بالمشيب ، وان اكليل الزنبق الذي وضع على نعشها يوم دفنها لم يكن اشد بياضاً من هيبة ذلك المشيب . فاعتبر يا صديقي ان امبراطور المانيا وامبراطورتها هما اللذان كفرا عن ذنوب المانيا كما يقولون اذا كان لها في الحقيقة ذنوب

« تأكد ايها الصديق اني اذا قدر لي أن أدعى الى عرشي ثانية ، فاني اطيل التفكر قبل أن أعطي جوابي . ان التاج حمل ثقيل ، وأثقل ما يكون على جباه غضتها الهموم

« لقد ذقت حلو الحياة ومرها ، وتنقلت بين هناء الوجود وشقائه ، فعلمني ذلك

كله ان نهاية الطريق الآخرة الصالحة ، وان الرجوع الى الله هو الحكمة بالذات وان ما عند الله خير وأبقى ، وعلى هذا فان الصلاة تعزيتي بعد ضياع كل تعزية ، وها اني على مرأى منك ومسمع اجثو واصلي الى الله الخالق الجبار

« عرفت غليوم أيها الصديق يوم كانت خوذته اللامعة تنطح السحاب ، فهل الرجل الواقف امامك الآن هو ذاك الفارس المقنع الذي به أبرقت السماء وأرعدت الارض ، ان غليوم لم يعد غير أسير منفى كما تراه ، وغداً اذا ذبلت الاكاليل على ضريحه فلا تنس أن تركع وتصلي الى جانب الحفرة التي يضجع فيها الامبراطور المائت الكبير (اه)